وظيفة الشعر ووظيفة النقد (١)

ت ـ س ـ اليوت
٤ تشرين الثانى ١٩٣٢
ترجمة عبدالوهاب الوكيل

« يعم البلد الآن هياج وحماس سببتهما الحملة السياسية القائمة مما جعل البلد فى حالة من الانفعال الاهوج وأصبح خير ما ينتظره من مستقبل هو احتمال اعادة تنظيم أحزابه كنتيجة غير مباشرة للخصومة القائمة حاليا بين الجمهوريين والديمقراطيين بيد اننا لا نتوقع حدوث أى تغيير جذرى ٠٠ »

وردت هذه الكلمات فى رسالة كتبها جارلس اليوت نورتن(٢) فى ٢٤ ايلول عام ١٨٧٦ ولن تعنى هذه المحاضرة بالموضوع السياسى الذى تضمنته الرسالة واذا ما بدأتها بعبارة سياسية فذلك لكى أدل على تنوع الاولاع عند العالم والباحث الانسانى الذى تحتفل هـذه المؤسـسة بذكراه ٠ فالمحاضر السعيد فى مثل هذه المؤسسات هو ذلك الانسان الذى يشعر بالحب والاعجاب للرجل الذى تحاول هذه المحاضرات الابقاء على ذكراه حية خالدة ، كما هى الحال معى ٠ فقد كان لـ « جارلس اليوت نورتن » من الصفات الاخلاقية والروحية المتميزة بالثبات ورباطة الجأش ما لا نجده الا عند غير المرسلين من الانبياء ، ومن الصفات العقلية ما يمتاز به اشباه العباقرة وحسب ٠ اذ يكفى ان

---

(١) The Use of Poetry and the Use of Criticism.
By T. S. Eliot

نشر هذا المقال مقدمة لـكتاب بنفس العنوان ، وهو مجموعة محاضرات القيت فى جامعة هارفرد عام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣

(٢) كان جارلس اليوت نورتن « ١٨٢٧ ـ ١٩٠٨ » استاذ الفنون الجميلة فى جامعة هارفرد ٠ ومع ان انتاجه الادبى لم يكن غزيرا الا انه كان واسع الاثر فى الفكر الاميركى الذى يعتبر هو من زعمائه ٠ وكان هدفه الاول كما عبر هو عنه اثارة الشعور بالصلة التى تربط الماضى بالحاضر فى مواطنيه والشعور بعرفان الجميل للجهود والمحاولات التى بذلتها وما تزال تبذلها الامم الاخرى والاجيال الساحقة ٠ وساهم نورتن فى تحرير
The North American Review
عام ١٨٦٤ ـ ١٨٦٨ ٠

يقوم الانسان فى حياته بعمل نافع ويقول كلمة جريئة ويتأمل شيئاً جميلا لكى يكون محترما • فقليل من الرجال سواء من عرف كيف يعطى المكانة الصحيحة اللائقة لقيم الحياة العامة والخاصة ، وقليل منهم اتيحت لهم الفرصة وتوفقوا فعلا فى التصرف بها كما فعل هو • فقلما يستطيع السياسى الاعتيادى وهو رجل القضايا العامة ، ان يذهب الى المحلات العامة بدون اقناع الرسمى الذى يلبسه عادة مثل هؤلاء الرجال • ولكن نورتن كان يحتفظ دائما بصفاته التى يتحلى بها فى عزلته • ولما كان يعيش فى مجتمع غير مسيحى وفى عالم تظهر عليه علائم الانحلال والتفسخ (كما كان العالم على جانبى المحيط الاطلسى يبدو له آنذاك) ، فقد احتفظ بالمقاييس البشرية والانسانية التى كان يعرفها : اذ كان قادرا فى سن مبكرة جدا على النظر الى النظام الزائل دون أسف والى النظام القادم دون أمل • فقد تحدث فى رسالة كتبها فى كانون الاول ١٨٦٩ بعبارة قوية شاملة قائلا :

« ان مستقبل اوربا مظلم جدا • ويلوح لي اننا مقبلون على عهد تاريخى جديد تماما ، عهد لن تكون القضايا التى تختلف الاحزاب بصددها والتى تؤدى الى قيام ثورات متعددة عنيفة سياسية بل اجتماعية محضة ••• ولست اشك فى ان عهدنا هذا الذى تميز بالمشاريع الاقتصادية الضخمة والمنافسة المطلقة والفردية السائبة ، هو أعلى مرحلة فى التقدم البشرى • وفى بعض الاحيان عندما اتأمل الاحوال السائدة فى النظم الاجتماعية الاوربية (بله الاميركية) والتى هى سيئة بالنسبة لمجموع افراد الطبقات الاجتماعية العليا منها والدنيا أتساءل ما اذا كانت مدنيتنا تستطيع الحفاظ على نفسها من القوى التى تتكتل وتتآزر لتحطيم الكثير من المؤسسات التى تضمها ، وما اذا كنا سنمر فى فترة ثانية من الانحطاط والتدهور والسقوط والدمار ومن ثم البعث كتلك التى مررنا بها فى الالف وثلثمائة سنة الاولى من تاريخنا المسيحى • ولن يحزننى كثيرا تأكدى من وجود هذه العيوب • فلا يمكن للانسان الذى يلم تماما بحالة المجتمع الحقيقية اليوم الا ان يعترف بأن الاحوال كما هى اليوم غير جديرة بالمحافظة[٣] » •

---

(٣) سيرة چارلس اليوت نورتن ورسائله •

هذه كلمات يوافق عليها كثير من الذين يبحثون فى القضايا المعاصرة وممن يتحلون بروح أكثر تعصبا من نورتن ومع ذلك فان الاهمية الثابتة للأدب ان لم نقل للعقيدة ، كانت بالنسبة له حقيقة واقعة • فالشعب الذى يكف عن الاهتمام بتراثه الادبى يصبح بربريا ، كما ان الشعب الذى ينقطع انتاجه الادبى يصبح راكد الفكر والحس فان شعر أية أمة من الامم يستمد حياته من لغتها الدارجة كما انه بدوره يمدها بالحياة • فهو يمثل أعلى مرحلة من مراحلها الشعورية واعظم قوة لديها والجانب الرقيق من مشاعرها • وسأبحث فى هذه المحاضرات فى نقد الشعر بقدر ما سأبحث فى الشعر نفسه أو أكثر من ذلك ولن يقتصر موضوعى على علاقة النقد بالشعر ، وذلك على فرض اننا نعرف سلفا ما هية الشعر ووظيفته والغرض منه • ففى الحقيقة يقوم الجزء الاكبر من النقد فى البحث فى هذه الاسئلة والاجابة عنها وحبذا لو سمحتم لى بأن ابدأ فافترض معرفتنا لماهية الشعر والغرض الذى ينبغى ان يهدف اليه وفائدته وان احاول عن طريق تفحص علاقة الشعر بالنقد ، البحث فى وظيفة كل منهما • وقد نجد اننا لسنا متأكدين تماما من معنى كلمة « وظيفة » وعلى كل حال فيجدر بنا ان نفترض معرفتنا ذلك •

لن ابدأ بتقديم تعريف عام لخصائص الشعر الايجابية والسلبية او البحث فيما اذا كان من الضرورى للشعر ان يكون « منظوما » ولا بدراسة الاختلاف بين الشعر والنظم من ناحية والشعر والنثر من ناحية أخرى • وعلى كل حال فيمكننا تقسيم النقد منذ البداية الى نوعين بل اتجاهين والافتراض بأن النقد هو ذلك الجزء من التفكير الذى يحاول البحث عن ما هية الشعر ووظيفته والرغبات التى يشبعها ولماذا يكتب أو يقرأ أو يرتل ، وعن العوامل التى تثمن الشعر فعلا وذلك بفرض اننا كنا ندرك هذه الحقائق وربما وجدنا النقد الجديد أغراضا غير هذه ولكن الاغراض التى ذكرناها هى التى يجوز له التصريح بها فقط • ولن يكتشف النقد طبعا ما هية الشعر مطلقا • وأقصد بذلك الوصول الى تعريف شامل له • وحتى ان وجد فلست أفهم الغرض منه • كما ان النقد لم يصل الى وضع تثمين مطلق للشعر بيد ان هنالك حدين نظريين للنقد • نحاول عند احدهما الاجابة عن السؤال :ـ

(ماهو الشعر ؟) وعند الثانى (هل هذه القصيدة جيدة ؟) ولن تكفينا البراعة النظرية لكى نجيب عن السؤال الثانى وذلك لعدم وجود نظرية تستطيع ان تحقق نتائج كبيرة فى هذا المضمار اذا لم تقم تلك النظرية على أساس التجربة المباشرة للشعر الجيد • وعلى العكس فان تجربتنا المباشرة للشعر تستلزم طاقة كبيرة تقوم على التعميم واطلاق النظريات •

والناقد الجدير بعناية القارىء هو الذى يطرح هذين السؤالين حتى اذا لم يوفق الى الاجابة عنهما بصورة كاملة • فأرسطو يبدو لي فى ما نملكه من كتاباته عن الشعر قد زاد فى سرعة تذوقنا لكتاب المآسى المسرحية الاغريقية وأدى دفاع (كولرج) عن شعر « وردسورث » الى وضعه قواعد عامة عن الشعر هى غاية فى الاهمية • كما ان « وردسورث » فى شرحه لشعره يضع عدة نظريات بخصوص طبيعة الشعر لها من الشمول والعمق (على الرغم من كونها مبالغ فيها) اكثر مما تصوره هو عنها • والمستر (أ ، آى ، رتشارد) الذى يجب ان يكون أدرى الناس بالعدة التى يحتاجها الناقد العلمى فى عمله ، يخبرنا بان كلا من المعرفة القائمة على العاطفة للشعر والقابلية فى التحليل النفسى المجرد عن العاطفة ضروريان • فالمستر رتشارد من دعاة التهذيب الاخلاقى شأنه شأن جميع نقاد الشعر الجدين • ولكن فلسفته الاخلاقية أو نظريته فى القيم هى من الفلسفات التى يتعذر على تقبلها • أو بالاحرى لا يمكننى تقبل أى نظرية قائمة على أسس شخصية فى علم النفس كهذه • ولكن شرحه النفسى للتجربة الشعرية يقوم على تجربته الشخصية للشعر تماما كما تقوم نظريته فى القيم على نظريته فى علم النفس فقد يتعذر عليك الاقتناع بأستنتاجاته الفلسفية ولكنك مع ذلك تؤمن بذوقه المميز بالشعر كما هى الحال معى • واذا لم تكن لتثق فى قابلية الناقد على التمييز بين القصيدة الجيدة والقصيدة الرديئة فلن تثق فى صحة نظرياته • ولكى يستطيع الناقد تحليل اللذة والاعجاب الذى تثيره فيه أية قصيدة جيدة ينبغى أن يكون قد جرب فعلا تلك اللذة وان يكون قد أقنعنا بجودة ذوقه ، لان تجربة تذوق قصيدة رديئة والاعتقاد بجودتها تختلف تماما عن تجربة تذوق قصيدة جيدة •

اننا نتوقع من الناقد الذى يتوصل الى وضع نظريات فى النقد ان يعرف القصيدة الجيدة حالما يراها • وليس من الصحيح دائما القول بان الشخص الذى يعرف القصيدة الجيدة حالما يراها يستطيع ان يخبرنا عن سبب جودتها فالتجربة الشعرية كأى تجربة أخرى لا يمكن ترجمتها بالالفاظ بصورة كاملة • فاولا ، كما يقول المستر رتشارد ، ليس المهم فى القصيدة المعنى الذى تعبر عنه ، بل المهم ما تؤلفه هى بذاتها • ونحن نعلم ان بعض الناس الذين لا يستطيون التعبير عن انفسهم ، ويعجزون عن التحدث عن سبب اعجابهم بقصيدة ما قد يكون عندهم شعور أعمق وقابلية على التمييز أدق من اولئك الذين يستطيون التحدث بلباقة عنها • وينبغى ان نتذكر فى هذا الصدد أن الشعر لا يكتب لمجرد مدنا بموضوع للتحدث • اذ لا يستطيع حتى ابرع النقاد الا ان يكتفى ، فى النهاية ، بالاشارة فقط الى الشعر الذى يبدو له جيداً ومع ذلك فان التحدث عن الشعر هو جزء من تجربتنا وامتداد لها • ولما كان نظم الشعر قد استنفد قوى فكرية عظيمة لذا فان دراسته يجب ان تستنفد طاقات فكرية مماثلة • فالاساس الذى يقوم عليه النقد هو القابلية على احتيار القصيدة الجيدة ونبذ القصيدة الرديئة • وخير اختبار لذلك هو القابلية على اختيار القصيدة الجيدة حال ظهورها والاستجابة الى الموقف الجيد بصورة تتناسب مع اهميته • فالتجربة الشعرية التى تنمو وتتطور فى الانسان الناضج الواعى ليست حصيلة تجارب قصائد جيدة فقط لان التربية الشعرية تتطلب تنظيما لهذه التجارب فلا يوجد بيننا من خلق وهو مزود بقابلية دقيقة فى التمييز والتذوق او حصل عليها فجأة فى مرحلة البلوغ او أية مرحلة من مراحل حياته •

ان اصحاب التجارب المحدودة يكونون دائما عرضة لان يخدعوا بكل ما هو مزيف وباطل • ونحن نشاهد اجيالا متعاقبة من القراء الذين يعوزهم التدريب والخبرة تضللهم الاشياء المزيفة والتى تفتقر الى الاصالة فى عصرهم حتى انهم ليفضلونها على الاشياء الاصيلة وذلك لسهولة هضمها • ومع ذلك فانى اعتقد ان عددا كبيرا من الناس لهم القابلية الموروثة لتذوق بعض القصائد الشعرية الجيدة • اما البحث فى مقدار او درجة هذه القابلية التى يمكننا

تمييزها لدى البعض فلا يدخل فى نطاق هذا البحث • فالقارىء الفريد هو ذلك الذى يتمكن بمرور الزمن من توزيع وتنظيم ومقارنة تجاربه بعضها بالبعض الاخر فيرى احدها فى ضوء الآخر • والذى كلما زادت تجاربه الشعرية تمكن من تفهم كل منها بصورة مضبوطة فيتضخم عنصر التذوق عنده فيستحيل الى القابلية على التثمين وهذه تؤدى الى اشتراك عنصر العقل والتفكير فى الملكة الحسية القوية الاصلية • والمرحلة الثانية فى تفهمنا للشعر هى المرحلة التى لا نكف بها عن اختيار الجيد ونبذ الردىء فحسب انما نبدأ فى التنظيم • ويمكننا ان نتحدث عن مرحلة ثالثة • مرحلة اعادة التنظيم وهى المرحلةالتى يصادف بها ذوو الثقافة الشعرية نتاجا جديدا فى الشعر المعاصر فيجد فيه طرازا جديدا من الشعر منبعثا عن ذلك النتاج •

ان هذا الطراز الذى تكونه فى اذهاننا قراءتنا الخاصة للشعر الذى تمتعنا به ، هو نوع من الجواب الذى يعطيه كل منا لنفسه عند التسائل عن ما هية الشعر • ففى المرحلة الاولى نكتشف طبيعة الشعر عن طريق قراءته والتمتع بما نقرأه منه • اما فى المرحلة المتأخرة فان احساسنا بأوجه الشبه والاختلاف بين ما نقرأه لاول مرة وما تمتعنا بقراءته سلفا هو الذى يزيد من متعتنا ونحن نفهم ما هية الشعر (اذا كان ذلك ممكنا) بواسطة قراءتنا له • ولكن يمكننا ان نقول بأننا لن نستطيع ان نميز الشعر فى صوره الخاصة ما لم تكن لدينا فكرة اصيلة عن مفهوم الشعر العام • وعلى كل حال فان التساؤل عن ما هية الشعر ينبعث بصورة طبيعية من تجربتنا للقصائد الشعرية • وعليه فحتى لو اعترفنا بان النقد أقل النشاطات الفكرية ابرازا لاهميته على ممر العصور (عن طريق انتاج الكتب الجديرة بالقراءة مثلا) فان وجوده اصبح حقيقة محتمة لا تحتاج الى تبرير • فالتساؤل عن ما هية الشعر يعنى الاعتراف ضمنا بأهمية النقد •

ولابد ان كثيرا من الناس ، كما يخيل لى ، قد راودتهم هذه الفكرة وهى ان كتب النقد كانت منعدمة فى بعض الفترات التاريخية التى شهدت انتاجا شعريا جيدا ، وان الشعر كان رديئا فى بعض الفترات الاخرى التى شهدت نشاطات فى كتابة النقد • وتوحى هذه الحقيقة بوجود تضاد بين

فعاليات النقد والفعاليات الابداعية ، وبين عصور النقد وعصور الخلق الفنى • ويعتقد احيانا بأن النقد يزدهر اكثر ما يزدهر فى العصور التى يصاب فيها النشاط الابداعى بخلل • ووجود مثل هذه الافكار المتحيزة فى اذهان البعض هو الذى أدى بهم الى وصف عصور النقد بالعصور الاسكندرية (Alexandrian) ويقوم هذا الرأى الاعتباطى على عدة فرضيات من بينها الخلط بين اشياء عديدة متنافرة واعمال أدبية من نوعيات متباينة اطلق عليها اسم « النقد » وسأستخدم لفظة « النقد » فى هذه المحاضرات فى مدلولها الضيق • وآمل ان لا تفوتكم ملاحظة ذلك • ولست براغب فى التحقيق فى عيوب القسم الكبير من الكتب التى تعرف بهذا الاسم او الاطراء تملقا على تلك العادة الكسول التى تستعيض عن وضع الدراسة الدقيقة للنص الاصلى بتقديم خلاصة لافكار الآخرين • ولما كان الناس لا يؤلفون الكتب عندما تكون لديهم أفكار يريدون التعبير عنها وانما لمجرد الكتابة ، أو لانهم يحتلون مناصب تتطلب منهم التأليف لذا كانت كمية النقد لا تتناسب مع عدد الكتب القيمة منه • ومع ذلك فان اولئك الذين يتحدثون عن النقد كما لو كان مهنة من مهن عصر الانحطاط وعلامة (ان لم يكن سبباً •) من العلامات التى تدل على ضعف القابلية الابداعية عند الناس ، فانهم يعزلون بذلك ظروف الحياة الاخرى بحيث يتجنون على الحقائق ويزيفونها • اذ لا يمكن مثلا فصل التغيرات التى أدت الى نظم قصائد الملاحم لغرض القراءة بعد ان كانت تنظم لغرض الترديد ، او التغيرات التى وضعت حدا نهائيا لقصائد « البالاد » الشعبية لا يمكن فصل مثل هذه التغيرات عن التغيرات الاجتماعية بشكل عام ، تلك التغيرات التى كانت وستبقى تحصل باستمرار • ولقد كتب (دبليو • ب كير) فى مقاله عن (اشكال الشعر الانكليزى •) يقول : (كان الفن فى العصور الوسطى اجتماعيا عاما كما هى حال النحت الذى نجده فى الكاتدرائيات العظمى • وفى عصر النهضة تغير الدافع المحرك للشعر • فالاحوال العامة فى العصور الوسطى كانت بطبيعة الحال مماثلة للاحوال الاغريقية ولكننا نجد فى الشعر الحديث لعصر النهضة حركة بعث وتقليد واعية ومقصودة للاحوال التى سادت الشعر الرومانى • فالشعر الاغريقى ما

يزال كما كان فى العصور الوسطى فى نواح عديدة • ولكن الشعر الرومانى فى العصر الذهبى هو شعر عصر النهضة وهو قائم على تقليد الاساليب المشتقة من اليونان مع تباين الظروف وتغيير علاقة الشاعر بقرائه •

(وليس مرد ذلك أن الشعر اللاتينى أو الحديث هو شعر غير اجتماعى • فمن الصحيح القول بأن الفن الحديث ، بما فى ذلك الشعر ، يتجه اتجاها مغايرا فى معظم الاحيان للذوق العام السائد فى حينه اذ غالبا ما يترك الشعراء لانفسهم للبحث عن الموضوعات الشعرية وتطوير أساليب التعبير • وتكون النتيجة دائما مربكة وضارة كما هى حال (سورديلو) لـ (براوننج) •

وما يصح عن التغييرات الرئيسية الطارئة على أشكال الشعر ، يصح ايضا كما اعتقد ، عن التغييرات التى جرت على النقد والفلسفة • فانت لا تستطيع أن تهاجم النقد دون ان تقلل من شأن الفلسفة ، ويمكننا القول بان التطور الذى يطرأ على النقد هو مظهر من مظاهر التبدلات الاجتماعية ، اذ يظهر بأن الفترة المهمة لقيام النقد هى الزمن الذى ينفك فيه الشعر عن التعبير عن عتلية الناس بأسرهم • فمؤلفات (درايدن) المسرحية التى تؤلف المناسبة الرئيسية لظهور كتاباته فى النقد هى نتيجة شعور (درايدن) بأن امكانيات الكتابة على غرار (شكسبير) قد استنفذت باسرها ، فذلك الطراز من الكتابة أى (الشكسبيرى) ما يزال متمثلا فى ماسى (شرلى) (الذى يعتبر أكثر تجديدا وأقرب الى روح العصر فى ملاهيه) بعد ان تبدل الفكر والاحساس الانكليزى ولكن (درايدن) لم يكن يكتب لجميع الناس • كما ان اسلوبه لم يكن منبثقا من التراث الشعبى أو المتطلبات الشعبية فهو طراز لا يمكن تقبله الا عن طريق تسربه فى مجمع صغير • ولقد حاول الكتاب المسرحيون من اتباع Seneca القيام بعمل مماثل بيد أن ذلك الجزء من المجتمع الذى كان (دريدان) وكاب الملهاة فى عصر الاصلاح يكتبون له ، يؤلف ارستقراطية العصر الفكرية • وعندما يجد الشاعر نفسه فى عصر خال من الارستقراطية الفكرية حيث تنحصر السلطة فيه بيد طبقة تدعى الديمقراطية ، وتتمثل فى نفسها الامة بأكملها رغم ضئالتها ، وعندما يكون الخيار الوحيد أمام الشاعر هو مخاطبة جماعة صغيرة من الناس أو مناجاة النفس ، عندئذ تكون

الصعوبات التى يواجهها الشاعر أعظم والحاجة الى النقد اكبر ويقول (كر) فى المقال الذى نقلت منه توا :ـ

« ليس من شك فى ان الشعراء فى القرن التاسع عشر كانوا يكتبون لانفسهم اكثر مما فعل زملاؤهم فى القرن الثامن عشر وعليه فان تأثير ذلك فى قوتهم أو ضعفهم أكيد ولا يتسرب اليه الشك • ان الاستقلال البطولى الذى تميز به (براوننج) كما اتصف به شعر المخاطرات والاوهام فى القرن التاسع عشر متصل أشد الاتصال بالنقد وبالدراسات الانتقائية التى عمت جميع أنحاء العالم المختلفة فى طلب الجمال الفنى ، فمواضيعها مأخوذة من جميع العصور والاقطار • اما الشعراء فهم طلاب ونقاد انتقائيون يمكن فهمهم وتقبلهم كما يمكن فهم وتقبل المكتشفين الجغرافيين ، فقد ضحوا بما ضحى به المكتشفون عند تركهم أوطانهم وارجو ان لا يساء فهمى عندما أقول بان انتصاراتهم تجلب بعض المخاطر ، ان لم تكن للشعراء انفسهم فانطراز السائد فى الشعر على الاقل • » •

ستتضح التغيرات التدريجية فى وظيفة الشعر التى تحصل بتغير المجتمع ، بعد دراستنا لعدد من النقاد الذين يمثلون اجيالا عديدة مختلفة • ففى خلال ثلثمائة عام انتهى الامر بالنقاد الى تعديل بعض فرضياتهم واغراضهم وسوف يستمرون حتما فى هذا السبيل فهناك أشكال عدة يمكن أن يتخذها النقد وهناك دائما نسبة كبيرة من النقد الرجعى أو النقد الذى لا يمت للعصر بصلة كما ان هناك دائما عددا كبيرا من الكتاب الذين تعوزهم الكفاءة وذلك نتيجة جهلهم بالماضى أو عدم احساسهم بمشاكل الحاضر • لقد وضع النقد القديم عندنا ، بتأثير الدراسات الكلاسكية والنقاد الايطاليين ، عدة فرضيات عامة فى طبيعة الادب ووظيفته • فاعتبر الشعر فن من فنون الزخرفة وبولغ فى أهميته أحيانا كثيرة بيد ان أسسه بقيت صالحة لجميع الحضارات وسائر المجتمعات ، وهو فن تأثر كثيرا بظهور طبقة جديدة كانت

---

(٤) قصيدة قصصية من قصائد براوننج موضوعها (تطور الروح) • ومع ان حوادثها بسيطة وواضحة الا أنها فى تفصيلاتها والاشارات التى تعج بها تعتبر من أصعب قصائد (براوننج) واكثرها تعقيدا •

مرتبطة أضعف الارتباط (فى أحسن الاحوال) بالكنيسة وكانت شاعرة بتملك بها لاسرار الدراسات اللاتينية والاغريقية • وفى انكلترا صادفت قوى النقد التى انبثقت عن الاختلاف بين اللغة اللاتينية واللغة المحلية فى القرن السادس عشر مقدارا كافيا من المقاومة ، أى انه بالنسبة للعصر الذى مثله لنا (سبنسر وشكسبير) أدت القوى الجديدة الى بعث الحياة وتحريك الدوافع فى العبقرية المحلية ، ولكنها لم تكتسحها • وسيكون الغرض من محاضرتى الثانية هو اعطا النقد فى ذلك العصر الاهمية التى يستحقها والتى لم يعطها اياه أحد •

وفى العصر التالى لعصر (شكسبير) كان أعظم خدمة قدمها (درايدن) فى ميدان النقد هى كما اعتقد انه فى اللحظة المناسبة أصبح شاعرا بضرورة التأكيد على العنصر المحلى القومى للادب ويبدو (درايدن) فى مسرحياته انكليزيا شاعرا بانكليزيته ، أكثر من اسلافه فمقالاته فى المسرح وفى فن الترجمة ، دراسات واعية لطبيعة المسرح الانكليزى واللغة الانكليزية ، وحتى مقتبساته من (جوسر) هو تثبيت للتراث المحلى القومى لا ، كما يعتبر احيانا ، فشل فى تفهم وتذوق جمال اللغة والاوزان عند (جوسر) يدعو للسخرية والرثاء • بينما كان نقاد عصر (اليزابث) ملمين بالآداب الاجنبية وشاعرين بما يمكن أن يقبس منها ، كان (دريدان) شاعرا بوجود ما هو جدير بالمحافظة فى أدب أمته • ولكن أحدى الفرضيات بقيت سائدة طيلة تلك المدة وحتى بعدها بوقت طويل ، هى فرضية فى وظيفة الشعر • ويستطيع قراء كتاب (سدنى) المعروف بـ (دفاع عن الشعر) ان يلاحظوا ان الاشخاص الذين يحمى (سدنى) الشعر من خطرهم والذين يسميهم (Misomousoi) أى (اعداء الفنون والادب) هم فى الحقيقة دمى تافهة لا وزن لها ، وانه واثق من كسبه لعواطف قرائه وانه لا يحتاج الى التساؤل عن ماهية الشعر والغرض الذى يؤديه وهل هو مرغوب فيه • ففكرة سدنى عن الشعر هى انه يمدنا بالمتعة والنصح فى آن واحد وانه زينة الحياة الاجتماعية وشرف الامة •

وأنا أبعد ما أكون فى خلاف مع هذه الفرضيات طالما يمكن تطبيقها •

ان النقطة التى اسعى الى ايضاحها هى أن هذه الفرضيات بقيت زمنا طويلا دون أن تناقش أو تعدل • وانه خلال ذلك الزمن الطويل نظمت قصائد رائعة وكتبت أروع الكتب فى النقد • وأنا أعتقد حقا بأن العصر الذى يكون فيه الناس متفقون حول وظيفة الشعر يمكنك فى أغلب الاحيان ان تجد فيه دراسة دقيقة ومضبوطة لمفهوم السعادة أو التعاسة فى كل بيت من أبيات قصائده وهو ما لا نجده أبدا فى النقد اليوم • ذلك النقد الذى يشترط فى فن الشعر لا أن يكون مكتوبا بصورة جيدة بل ان يكون (ممثلا لعصره) وحبذا لو وجهنا اهتمامنا عند كتابتنا الشعر نحو سلامة التعبير ووضوحه ودقته وفصاحته اللغوية وحسن اختيار الفاظه وأصالته وبعبارة أخرى أن ندقق فى اصالة شعرائنا وسلامة نشأتهم • والفكرة التى اريد أن أبينها هنا هى ان تغيرا هائلا حصل فعلا فى القرن الثامن عشر فى موقف الناس من الشعر وما يوقعونه منه ويتطلبونه فيه • ويمكننا أن نقول ان هذا التعبير حصل فى القرن الثامن عشر فلم يكن عمل (وردسورث) و (كولرج) تقويض عرف فاسد فقط بل كان ثورة على النظام الاجتماعى بأسره ، حتى أخذ الشعراء يدعون لانفسهم وشعرهم أهمية عظيمة ، ووصلت غايتها من الغلو فى عبارة (شلى) المعروفة « الشعراء هم مشرعو البشرية غير المعترف بهم » وكان مداح الشعر قد قالوا ما يماثل هذا القول ، ولكنه لم يؤد نفس هذا المعنى ، فشلى (اذا جاز لنا استعمال عبارة موفقة من عبارات (برناردشو) كان أول من مثل الطبيعة وناب عنها من بين اقرانه • واذا كان (ورد سورث) يعتقد بانه كان منهمكا فى اصلاح لغوى فحسب فقد خدع نفسه بنفسه : اذ انه كان منهمكا فى ثورة لغوية • وكانت لغته تميل الى التكلف ولم تكن تساعد على التعبير السليقى كما هى الحال فى لغة بوب أو أكثر ، كما أحس (بيرون) بذلك واشار اليه (كولرج) بصراحة • ولم يبق انهيار الدين وتفكك المؤسسات السياسية على حدود يعتبر الشاعر بعدها متجاوزا ولهذا جوز النقاد قيام الشعراء بوظائف أخرى • فكان الشاعر قسيسا فترة طويلة من الزمن ، وما يزال هناك بعض الافراد ، كما اعتقد ، يتصورون ان فى امكانهم الحصول على الغذاء الدينى من (براونتك) أو (مريديث) •

بيد ان المرحلة الثانية تتجلى بأحسن صورة فى (ماثيو ارنولد) • فقد كان اعتدال (ارنولد) ورجاحة عقله سببا فى عدم تمسكه بحرفية الاعتقال بان الشعر خير وسيلة للتهذيب الدينى ، كما انه لم يكن يملك الكثير مما يعظ به الناس • ولكنه اهتدى الى اكتشاف حقيقة جديدة وهى ان الشعر ليس دينا ولكنه خير بديل عنه ، فهو ليس خمرة توصف للحزين بل هو بمثابة القهوة الخالية من (الكافين) ، أو الشاى الخالى من (التانين) • ووسع مذهب (ارنولد) هذا بصورة مشوهة بعض الشىء وأدخل ضمن مذهب (الفن للفن) • وقد يبدو هذا المذهب بانه ارتداد الى عقيدة أبسط سادت فى عهد متقدم كان فيه الشاعر أشبه بطبيب أسنان ، أى انه كان رجل ذا مهمة معينة • ولكن ذلك فى الواقع كان اعترافا بائسا بانعدام المسؤولية فشعر الثورة هو غير شعر التراجع والانهزام •

ودفعتنا عوامل مختلفة اليوم الى اتخاذ مواقف جديدة ، فمن ناحية دفعت الدراسة النفسية الناس الى تفحص عقلية الشاعر بسهولة سببت بعض الغلو والانحراف فى مفاهيم النقد ، وادت الى تفحص عقلية القارىء والبحث فى مسألة (الاتصال) الفنى ، تلك الكلمة التى ربما قررت حقيقة تحتاج الى برهان • ومن الناحية الاخرى أظهرت لنا دراسة التاريخ العلاقة القائمة بين شكل الشعر ومحتواه بالاحوال السائدة فى نفس الزمان والمكان • وربما كان البحث النفسى والاجتماعى هما اكثر انواع النقد التى لاقت رواجا واعلانا ، ولكن الطرق المختلفة التى تمت بها دراسة مشاكل النقد لم تكن فى أى وقت مضى بهذا العدد او بهذه الصورة المربكة • فلم تكن هناك نظريات ثابتة مستقرة عن ما هية الشعر وفائدته وسبب وجوده أقل من تلك التى نجدها اليوم • يبدو ان النقد اليوم قد تشعب الى أنواع مختلفة عديدة •

لم يكن غرضى من هذا العرض الموجز لتطور النقد خلال العصور هو التمهيد لربط نفسى باتجاه معين من اتجاهات النقد الحديث ، لاسيما النقد الذى يقوم على الدراسة الاجتماعية • فانا اعتقد باننا نستطيع ان نتعلم الكثير عن النقد وعن الشعر وذلك بتفحص تاريخ النقد لا عن طريق استعراض

المفاهيم المتعاقبة المختلفة الموضوعة عن الشعر فحسب بل عن طريق اجراء عملية التوفيق بين الشعر وبين العالم الذى كتب فيه ومن أجله • فاننا نستطيع ان نتعلم بعض الشيء عن الشعر بمجرد دراستنا لافكار الناس عنه خلال العصور دون اللجوء الى الاستنتاجات الباطلة فى عدم وجود ما يمكن ان يقال بصدده او لان الافكار عنه فى تبدل مستمر ، وثانيا ان دراسة النقد التى لا تقوم على وضع سلسلة من التخمينات الاعتباطية بل على اعادة تحديد علاقة الادب بالظروف الجديدة قد تساعدنا ايضا فى الوصول الى بعض النتائج بشأن النواحى الثابتة او الازلية فى الشعر • وتلك التى هى مجرد تعبير عن روح العصر ، وعند اكتشاف القيم التى تتغير وكيفيتها وسبب تغيرها نصبح قادرين على تفهم وادراك ما هو ثابت منها • وعندما نتقصى المشاكل التى كانت تبدو لعصر من العصور مهمة وتتدبر عناصر الاختلاف والتشابه منها نستطيع نوعا ما ان نبعد عوامل الضعف عندنا وان نحرر انفسنا من بعض الآراء المبتسره التى نسير عليها وسأستشهد هنا بقطعتين قد أعود اليهما فيما بعد ، الاولى من مقدمة قصيدة (درايدن) Annus Mirabilis التى يقول فيها « ان اول بادرة للسعادة يجدها خيال الشاعر هى الابتكار الموفق او العثور على الافكار • وثانيهما التطور ، او تنويع تلك الافكار وتصريفها او سبكها حسبما تمليه الحكمة ويتطلبه الموضوع ، اما الثالث فهو الفصاحة او فن صياغة وتزيين الفكرة باستخدام الفاظ متنوعة بليغة ومنتقاة ذات جرس • وتظهر سرعة الخيال فى الابتكار وخصوبة قوى التطور ودقة التعبير • »

اما القطعة الثانية فهى من (السير الادبية) لـ (كولرج) التى يقول فيها « لقد أدى بى التأمل المتواصل أولا الى الظن بان التطور والخيال هما قابليتان مختلفتان ومتميزتان عن بعضهما لا كما نعتقد عامة بانهما اسمان لمدلول واحد أو درجتان متباينتان لقوة واحدة ، الاولى واطئة والثانية عالية • وهو غاية ما ذهب البعض اليه • وانا اعترف بان من الصعوبة بمكان التوصل الى ترجمة مناسبة للكلمة الاغريقية Phant - asia اكثر ملائمة من الكلمة اللاتينية Imaginato • ولكن يصح القول أيضاً بانه توجد فى جميع

المجتمعات غريزة للنمو والتطور ، وهى نوع من التعقل الاجتماعى اللاواعى يعمل باطراد على فك ترادف هاتين الكلمتين المترادفتين فى الاصل ذلك الترادف الذى ساعد على قيامه اختلاط لهجات محلية للغات متجانسة بعضها من البعض الآخر كما هى حال اللاتينية والالمانية .

فكان لـ (ملتن) عقلية توصف فى الانكليزية بـ highly Imaginative أى ، يمتاز بالخيال الرفيع ، بينما كان عقل (كاولى) يمتاز بقابلية كبيرة على التطور[٥] "Very Fanciful" .

ان الطريقة التى تتحكم فيها ظروف كل من الشاعرين الناقدين فى تعابيرهما جلية واضحة وكذلك الحالة الفكرية المتطورة عند (كولرج) التى تتمثل فى تفهمه الدقيق لفقه اللغة وعزمه الواعى على جعل بعض الكلمات تؤدى معانى معينة ..

بيد ان ما نريد بحثه فى هذا الصدد هو ما اذا كنا بصدد نظريتين فى الخيال الشعرى متباينتين كل التباين ، نظريتان يمكن التوفيق بينهما بعد دراسة اسبات الاختلافات العديدة المتضمنة فى الفترة الزمنية التى تفصل عصر (درايدن) عن عصر (كولرج) .

وربما اتضح لكم بان القسم الاكبر مما تحدثت عنه قليل الصلة بكتابة الشعر على الرغم من علاقته بتذوقه وتفهمه . وعندما يكون النقاد انفسهم شعراء ، فقد يظن بانهم وضعوا قواعدهم فى النقد لغرض تبرير الاساليب التى يمارسونها فى كتابة الشعر ، فهذا النقد الذى نجده فى القطعتين السالفتين

---

(٥) ولى ان اعلق هنا أو فى أى مكان آخر ان المعنى المتضمن فى الجملة الاخيرة قد يفعل فعله فى التأثير اللا واعى فى عقلية القارىء وسرعة تطبيقه لها . فنحن متفقون فيها بان (ملتن) هو أعظم شاعرية من (كاولى) فهو شاعر من طراز آخر ومن درجة اسمى ومن ثم نقر بواسطتها ودون تمحيص بامكان تقرير الفرق بينهما عن طريق هذه المقارنة البديعة ونعترف دون تمحيص أيضا بالفرق بين الخيال والتصور الذى قام (كو لرج) بمجرد فرضه علينا ، ان المقارنة بين الرفيع highly والكبير Very هى من العوامل التى تزيد من سرعة اقناعنا أيضا .

ملاحظة : تستعمل كلمة Imaginative اليوم للدلالة على العمل الفنى الذى يكوّن وحدة متماسكة الاجزء والـ Fan ciful للعكس من ذلك .

(المعرب)

لم يكن ليقصد به ارشاد الشعراء الشباب وتوجيه اسلوبهم • فهو عبارة عن تقرير لتجربة الشاعر عن نشاطه الشعرى ينقلها لنا بتعابيره الفكرية فالفكر الناقد الذى يستخدم فى انتاج الشعر والمجهود الناقد الذى يلزم لكتابته يكونان دائما أكثر نضجا من الفكر الناقد الذى يعمل على تثمين الشعر سواء كان ذلك الشعر للكاتب نفسه او لسواه من الشعراء • والذى أود التأكيد عليه هو ان رابطة قوية تربط أرقى انواع الشعر بأرقى انواع النقد لنفس الفترة • فعصر النقد هو أيضاً عصر الشعر الناقد • وعندما أقول بأن الشعر الحديث شعر ناقد بدرجة عالية ، أعنى ان الشاعر الحديث الذى هو ليس مجرد ناظم للابيات الرقيقة ملزم بتوجيه هذه الاسئلة لنفسه وهى « ما هو الغرض من الشعر ؟ » وليس فقط : « ماذا ينبغى ان أقول ؟ » بل « كيف يمكننى ان أقول ولمن يمكننى ان أقول ؟ » اذ ينبغى علينا ان نوصل (اذا كان ذلك ايصالا فعلا ، لان هذه الكلمة تقرر حقيقة تحتاج الى برهان) تجربة ليست هى كذلك بالمعنى المألوف لانها ، وقد تم تركيبها من عدة تجارب شخصية ، رتبت بصورة ما قد تكون مختلفة جداً عن طريقة تثمين تجارب الحياة العملية ، فاذا كان الشعر نوعاً من (الايصال) فان الشىء الذى يراد ايصاله هو القصيدة نفسها • اما التجربة والفكرة التى ساهمت فى تكوينها فيكون ايصالها عرضاً فقط ، وتحتل القصيدة مكانها بين الكاتب والقارىء وللقصيدة حقيقة ، هى ليست مجرد ما يرغب الكاتب فى « التعبير » عنه كما انها لا تدور حول تجربته فى كتابتها ، أو حول تجربة القارىء أو تجربة الكاتب كقارىء • وعليه فان مسألة ما (تعنيه) القصيدة هو أصعب بكثير مما يبدو لاول وهله فاذا قدر لقصيدتى (اربعاء الرماد) ان تطبع ثانية فسوف الحق بها هذه الابيات من قصيدة (دون جوان) لبيرون :

« يتهمنى البعض بان لى اغراضاً غريبة ضد المعتقدات والقيم الخلقية لهذا الوطن ويحاولون الكشف عنها فى كل بيت من القصيدة •

ولست ادعى بانى افهم تماما المعنى الذى اقصده عندما اكون دقيقا جدا ولكن حقيقة القول هى انى لم أتدبر أى شىء ما عدا ان امرح لحظة » •

تحتوى هذه الابيات على بعض النصائح السليمة فى النقد • ولكن القصيدة

ليست ما يصممه الشاعر أو ما يدركه القارىء كما ان (وظيفتها) ليست محددة كليا بما يهدف المؤلف اليه أو بما تصنعه فعلا للقراء • ومع ان كمية ونوعية المتعة التى يمدنا العمل الفنى بها منـذ ظهوره الى الوجود ليست عفوية الا اننا لا نقيم احكامنا عليها ، كما اننا عند مشاهدتنا لقطعة من الريازة الرائعة أو سماعنا مقطوعة موسيقية لا نسأل « ما هى الفائدة أو الربح الذى نجنيه من هذا المعبد او تلك الموسيقى ؟ » فمن ناحية ليس المعنى المتضمن فى عبارة (وظيفة الشعر) الا هراء بيد ان هنالك معنى آخر لهذه العبارة • اذ لا يوجد أدنى شك فى ان الشاعر يرغب فى امدادنا بالمتعة واللذة والسرور بالاضافة الى أغراض الارشاد والاقناع التى استخدمها الشعراء بطرق مختلفة ونجاح متفاوت • وعليه ينبغى عادة ان يمتلىء قلبه بالفرح والرضى عنـدما يشعر بنجاحه فى الترفيه عن أكبر عدد ممكن من القراء •

وعندما يحاول الشاعر ، متعمدا ، تحديد القراء بالاسلوب والموضوع الذى يختاره ، عندئذ ينشأ وضع خاص يحتاج الى شرح وايضاح مسهبين ، ولـكنى أشك كثيرا فى قيام مثل هذه الحالة • فالـكتابة بأسلوب شائع شىء ، وتوقع شيوع الاسلوب الجديد شىء آخر •

فالشاعر فى رأى البعض يطمح لبلوغ مرتبة الممثل الكوميدى فى الروايات الغنائية • فهو عندما يتعسر عليه تغيير (بضاعته) بحيث تلائم الذوق السائد ، ان كان ثمة ذوق سائد ، يرغب عندئذ فى تغيير المجتمع حتى تسود حالة تصبح بضاعته فيها مفضلة ويستطيع فيها ان يستغل قابلياته فى أحسن وجه ويكون الشاعر من هذه الحالة اذاً مهتماً بوظيفة الشعر •